الفصل الثالث

التزكية والعمل الصالح

* قيمة العمل في الإسلام
* نعمة الأخلاق
* نعمة التوبة

قيمة العمل في الإسلام

الإسلام دين علم وعمل، فالدعوة إلى العلم بدأت مع أوّل كلمة نزل بها الوحي على قلب النبيّ محمّد عليه الصلاة والسلام «إقرأ». واستمرّت مع نزول الوحي وبعده حقيقة راسخة، وترافقت مع الدعوة إلى العمل، وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: «ليس الإيمان بالتحلّي ولا بالتمنّي ولكن ما وقر في القلب وصدّقته الأعمال»[1]. أي إنّ العمل هو شرط ترجمة الإيمان بالله إلى حقيقة مرئيّة. وبالعلم والعمل انطلقت الحضارة الإسلاميّة تشقّ طريقها في مختلف المجالات، وتنتشر في العالم انتشارًا واسعًا يشهد له جميع المؤرّخين.

ومن دلائل أهمّيّة العمل في الإسلام، تكرار كلمة العمل أو إحدى مشتقّاتها ما يقارب الـ ٣٣٠ مرة في القرآن الكريم، منها ما يزيد على الـ ١٠٠ مرة وردت مقرونة بالإيمان **«الذين آمنوا وعملوا الصالحات»**، أضف إلى ذلك الكلمات المرادفة لكلمة العمل ومشتقّاتها، مثل: فعل ويفعلون وصنع ويصنعون.

والعمل يكون للدنيا وللآخرة، يقول تعالى: ﴿ **وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا** ﴾ **[القصص: ٧٧]**. وفي آية أخرى: ﴿ **وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ** ﴾ **[التوبة: ١٠٥]**، وشهادة المؤمنين تكون على العمل في الدنيا، والآيات القرآنيّة التي تدعو إلى العمل كثيرة جدًا، وكذلك الأحاديث النبويّة الشريفة، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: أنّ رجلًا من الأنصار أتى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يسأله، ويطلب منه مالًا، فقال له النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «أما في بيتك شيء؟»، فقال الرجل: بلى، حلس (أي كساء)، نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقَعْبٌ نشرب فيه الماء. قال: «ائتني بهما». قال: فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بيده وقال: «من يشتري هذين؟» فقال رجل: أنا آخذهما بدرهم. فقال صلّى الله عليه وسلّم: من يزيد على درهم؟ - مرّتين

---

(١) البيهقي، شعب الإيمان، باب ذكر الحديث الذي ورد في شعب الإيمان، باب القول في زيادة الإيمان ونقصانه وتفاضل أهل الإيمان، ح (٦٦).

أو ثلاثًا - ، فقال رجل: أنا آخذهما بدرهمين، فأعطاهما الأنصاري وقال له: «اشتر بأحدهما طعامًا، فانبذه إلى أهلك، واشتر بالآخر قدّومًا (أي فأسًا) فأتني به». فأتاه به فشدّ فيه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عودًا بيده ثمّ قال له: «اذهب فاحتطب وبع، ولا أرينّك خمسة عشرة يومًا». فذهب الرجل يحتطب ويبيع، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوبًا وببعضها طعامًا، فقال الرسول صلّى الله عليه وسلّم: «هذا خير لك من أن تجيء المسألةُ نُكْتَةً (أي علامة) في وجهك يوم القيامة، إنّ المسألةَ لا تصلحُ إلّا لثلاثة: لذي فقرٍ مدقع (أي فقر شديد)، أو لذي غُرْمٍ مُفظِع (أي دين كبير)، أو لذي دمٍ موجع (أي عليه ديّة لا يستطيع أن يتحمّلها)»[١].

ولقد عمل الأنبياء وهم صفوة الخلق في مهن الدنيا، فنبيّ الله نوح عليه السلام كان نجّارًا، ويعقوب عليه السلام كان يرعى الغنم، ويوسف عليه السلام كان وزيرًا على خزائن مصر، وإدريس عليه السلام كان خيّاطًا، وكان يعمل في الخياطة ولسانه لا يكف عن ذكر الله، فلا يغرز إبرة ولا يرفعها إلّا سبّح الله، كما عمل موسى عليه السلام عشرة أعوام في رعاية الغنم عند الشيخ الكبير، أما نبيّ الله داود عليه السلام فقد كان حدّادًا يصنع الدروع، وآلات الحرب، كما كان ملكًا يعمل ويأكل من عمل يده. ويخبرنا بذلك النبيّ عليه الصلاة والسلام في قوله: «ما أكل أحد طعامًا قطُّ خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإنّ نبيّ الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»[٢]. وقد اشتغل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كذلك برعي الغنم في صغره، وعمل في التجارة في شبابه، كما شارك أصحابه في أعمال كثيرة، في حفر الخندق، وجمع الحطب، وبناء المسجد، وغير ذلك[٣].

وقد جعل الإسلام السعي في الأرض لكسب الرزق، سعيًا في سبيل الله، ولذلك فهو عبادة، وقد قدَّمه في سورة المزمل على القتال في سبيل الله، حيث يقول تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ

(١) أبو داود، كتاب الزكاة، باب ما تجوز فيه المسألة، ح (١٦٤١)، ص ٢٦٩.
(٢) البخاري، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، ح (٣٢٣)، ١٢٣/٣.
(٣) الموقع الالكتروني. موسوعة الأسرة المسلمة.

فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [المزمل: ٢٠].

والعمل يُكْسِبُ المرء حبَّ الله ورسوله، واحترام الناس. فقد روي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «إنّ الله يحبّ المؤمن المحترف»[١] (أي الذي له عمل وحرفة أو مهنة يؤدّيها).

ومن هذه الروايات والأحاديث ندرك أنّ الإسلام حثَّ على العمل، بغضِّ النظر عن حاجة الإنسان للمال، لأنّ العملَ يعفُّ النفس ليس فقط عن السؤال بل وعن الفراغ، خصوصًا أنّ الفراغ والمال يؤدّيان غالبًا إلى الفساد كما يقول الشاعر:

إن الشباب والفراغ والجِدّة مفسدة للمرء أيّ مفسدة

(والجِدَّة: تعني الغنى وكثرة المال).

والتاريخ الحديث مليء بالنهايات الحزينة، لعدد كبير من الأغنياء دفعتهم الثروة إلى الإعراض عن العمل، فملؤوا أوقاتهم بالمفسدات والمخدّرات، وكانت نهايتهم في السجون والانتحار.

ولعلّه من نافل القول أنّ العمل هو الطريق الأساسيّ إلى عمارة الأرض، وهو ما أمر الله به جميع خلقه من دون استثناء، غنيّهم وفقيرهم، قويّهم وضعيفهم. كان عمر رضي الله عنه يقول: «إنّي لأرى الرجل فيعجبني قوله، فأقول: أله حرفة؟ فإن قالوا: لا، سقط من عيني». ولا أبلغ في ذلك من قول النبيّ عليه الصلاة والسلام: «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألّا يقوم حتى يغرسها فليفعل»[٢]، وهذا ما يؤكّد أنّ العمل مطلوب من الإنسان لذاته، وفي سبيل عمارة الأرض، وليس لمجرد كسب المال فقط.

ولقد أمر الإسلام بالإتقان في العمل قدر المستطاع، حيث يقول النبيّ عليه

---

(١) البيهقي، شعب الإيمان، الثالث عشر من شعب الإيمان وهو باب التوكل بالله عز وجل، ح (١٢٣٧).

(٢) البخاري، الأدب المفرد، باب اصطناع المال، ح (٤٧٩).

الصلاة والسلام: «إنّ الله يحبّ إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه»[١]، كما نهى الإسلام عن الغشّ في العمل، وذلك في قول النبيّ عليه الصلاة والسلام: «من غشّ فليس منّي»[٢]، ونهى أيضًا عن الرشوة في قول النبيّ عليه الصلاة والسلام «لعن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الراشي والمرتشي»[٣]. ولذلك وجب على الإنسان أن يكون أمينًا في عمله لا يغشّ ولا يخون، ولا يرتشي، يحفظ أسرار عمله، ويؤدّيه على أكمل وجه، ويحفظ للعاملين حقوقهم، ولا يظلمهم ولا يكلّفهم ما لا يطيقون، ويوفّر لهم ما يحتاجون إليه من رعاية صحّيّة واجتماعيّة. وفي ذلك صلاح المجتمع وتقدّمه وحضارته.

---

(١) أبو يعلى الموصلي، المسند، مسند عائشة رضي الله عنها، ح (٤٣٦٩)، ٤/٢٠.

(٢) مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، باب قول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، "من غشنا فليس منا" ح (١٠٢/١٦٤)، ١/٩٩.

(٣) ابن ماجه، السنن، كتاب الأحكام، باب التغليظ في الحيف والرشوة، ح (٢٣١٣)، ٢/٧٧٥.

نعمة الأخلاق

من فضل الله ونعمته على عباده أن جعل حُسْنَ الخُلُق عبادة، فأرسل الرسل ليحدّدوا للناس مكارم الأخلاق، يقول النبيّ عليه الصلاة والسلام: «إنّما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق»[1]. فمكارم الأخلاق هي من أهداف الدعوة وبعثة النبيّ عليه الصلاة والسلام، ومكارم الأخلاق هي القوى والسجايا الراسخة في نفس الإنسان التي تصدر عنها أفعال الخير، من غير حاجة إلى تفكير أو رؤية. وقد أجمع الرسل على دعوة الناس إلى مكارم الأخلاق، فهي من ركائز الفطرة التي فطر اللهُ الناسَ عليها، ويجب حمايتها من وساوس الشيطان وغوايته.

ومن نعمة الله علينا أن جعل لنا في رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الأسوة الحسنة في أخلاقه، فقد شهد الله له بأخلاقه العظيمة في قرآن يتلى إلى يوم القيامة، حيث يقول جلّ وعلا مخاطبًا رسوله الكريم: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾ [ن: ٤] وقد وصفت أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، هذا الخلق العظيم للنبي عليه الصلاة والسلام فقالت: «كان خُلُقُهُ القرآن»[2]، وفي قول آخر: «كان - عليه الصلاة والسلام - قرآنًا يمشي على الأرض».

وحسن الخُلُق من تمام الإيمان، فقد كان عليه الصلاة والسلام يقول: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا»[3]. وروى الترمذي عن معاذ رضي الله عنه أنّ

---

(١) - الحاكم، المستدرك على الصحيحين، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين - عليهم السلام - ، من كتاب آيات رسول الله صلّى الله عليه وسلّم التي هي دلائل النبوة، ح (٤٢٢١/٢٣١)، ٢/٦٧٠.

- البيهقي، السنن الكبرى، كتاب الشهادات، باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها التي كان متخلقًا بها كان من أهل المروءة التي هي شرط من قبول الشهادة على طريق الاختصار، ح (٢٠٧٨٢)، ١٠/٣٢٣ [واللفظ له].

(٢) البخاري، الأدب المفرد، باب من دعا الله أن يحسن خلقه، ح (٣٠٨).

(٣) أبو داود، السنن، كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، ح (٤٦٨٢، ص ٧٣٧.

الترمذي، الجامع الصحيح، كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، ح (١١٦٢)، ٣/٤٦٦ [قال الترمذي: حديث حسن صحيح].

رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «إتّق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»[١]. ويقول عليه الصلاة والسلام: «خصلتان لا تجتمعان في مؤمن: البخل وسوء الخلق»[٢].

ومكارم الأخلاق الإسلاميّة آداب ربّانيّة مصدرها الشرع الحنيف والوحي الإلهيّ، فالخير ما أمر الله به، والشرّ ما نهى الله عنه. لذلك فهي نابعة من الكتاب والسنّة، يقول عليه الصلاة والسلام: «خيركم إسلامًا، أحاسنكم أخلاقًا، إذا فقهوا»[٣]، وأهم ما فيها أن تكون خالصة لله، من دون تكلّف أو رياء.

فالأخلاق في المفهوم القرآني أدب شامل يعمّ كلّ تصرّفات الإنسان، وكلّ أحاسيسه ومشاعره وتفكيره... حتّى الهاجس الذي يهجس داخل الضمير، فهي ليست محدودة بمساحة معيّنة ولا بعمل معيّن... ولا يوجد في الإسلام عمل واحد يمكن أن يخرج عن دائرة الأخلاق، فالصلاة لها أخلاق هي الخشوع، والكلام له أخلاق هي الإعراض عن اللغوّ، والجنس له أخلاق هي الالتزام بحدود الله وحرماته، والتعامل مع الآخرين له أخلاقه وهي الوفاء بالأمانة ورعاية العهد، والإنفاق له أخلاق هي التوسّط بين التقتير والإسراف، والحياة المجتمعيّة لها أخلاق هي أن يكون الأمر شورى بين الناس، والغضب له أخلاق هي العفو والصفح، ووقوع العدوان من الأعداء يستتبعه أخلاق هي الانتصار أي رد العدوان...

والأخلاق في المفهوم القرآني هي لله : فالصدق لله، والوفاء بالعهد لله واتّقاء

---

(١) الترمذي، الجامع الصحيح، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معاشرة الناس، ح (١٩٨٧)، ٣٥٥/٤ [قال الترمذي: حديث حسن صحيح].

(٢) الترمذي، الجامع الصحيح، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في البخيل، ح (١٩٦٢)، ٣٤٣/٤ [قال الترمذي: حديث غريب].

(٣) البخاري، الأدب المفرد، باب حسن الخلق إذا فقهوا، ح (٢٨٥).

المحرّمات في علاقات الجنس لله، والعفو والصفح لله، والانتصار من الظلم لله، وإتقان العمل لله، كلّها عبادة لله، تُقدَّم لله خشية وتقوى، وتطلّعًا إلى رضاه. إنّها ليست صفقة بشريّة للكسب والخسارة، إنّما هي صفقة تعقد مع الله. ولذلك يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «ألا أخبركم بمن يُحرّم على النار أو بمن تحرّم عليه النار: على كلّ قريب هيّن سهل»[1].

* ومن مكارم الأخلاق:

* بر الوالدين:

برّ الوالدين مكرمة عظيمة، ميّزها الله تعالى بأن قرنها بعبادته مباشرة حيث يقول عزَّ من قائل: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وفي آية أخرى: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وفي آية أخرى: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [النساء: ٣٦]، والآيات التي تأمر بحسن معاملتهما كثيرة في القرآن الكريم: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الأحقاف: ١٥]، ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [البقرة: ٨٣]، ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ [الإسراء: ٢٣]... .

والأحاديث النبويّة التي تحضّ على برّ الوالدين كثيرة أيضًا. فقد ورد في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «سألت النبيّ الله صلّى الله عليه وسلّم: أيّ العمل أحبّ إلى الله. قال: الصلاة على وقتها». قال: ثمّ أيّ؟

---

(١) الترمذي، الجامع الصحيح، كتاب صفة القيامة والرقائق، الورع، ح (٢٤٨٨)، ٦٥٤/٤ [قال الترمذي: حديث حسن غريب].

قال: «برّ الوالدين»، قال: ثمّ أيّ؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»[١]. وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال لرجل استأذنه في الجهاد: «أحيّ والداك؟ قال: نعم، قال: ففيهما فجاهد»[٢]. وعنه أيضًا أنّ النبيّ عليه الصلاة والسلام قال: «رضا الرب في رضا الوالد، وسخط الرب في سخط الوالد»[٣]. وعن معاوية بن جاهمة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: أردت أن أغزو وقد جئت أستشيرك، فقال له النبيّ عليه الصلاة والسلام: «هل لك من أمّ؟ قال: نعم. قال: فالزمها فإنّ الجنّة تحت رجليها»[٤]. وقد دعا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على من أدرك أبويه أو أحدهما، ولم يدخل بهما الجنّة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «رغم أنف، ثمّ رغم أنف، ثمّ رغم أنف»، قيل: من يا رسول الله؟ قال: «من أدرك أبويه عند الكبر، أحدهما أو كليهما فلم يدخل الجنّة»[٥].

ولا عجب أن يكون مع آيات البرّ بالوالدين، لفت نظر وتأكيد لدور الأمّ: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ [لقمان: ١٤]، وهو ما أكّده أيضًا الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام عندما جاءه رجل يسأله: يا رسول الله، من أحقّ الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمّك». قال: ثمّ من؟ قال: «أمّك»، قال: ثمّ

---

(١) - البخاري، الصحيح، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها، ح (٤٩٦)، ٢٨٢/١.
- مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، ح (٨٥/١٣٧)، ٨٩/١.

(٢) - مسلم، الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، باب بر الوالدين وأنهما أحق به، ح (٥/ ٢٥٤٩)، ١٩٧٥/٤ [واللفظ له]..
- البخاري، الصحيح، كتاب الأدب، باب لا يجاهد إلّا بإذن الأبوين، ح (٨٥٦)، ٣١٦/٨.

(٣) الحاكم، المستدرك على الصحيحين، كتاب البر والصلة، ح (٧٢٤٩/١٠)، ١٦٨/٤.

(٤) النسائي، السنن الكبرى، كتاب الجهاد، باب الرخصة في التخلف لمن له والدة، ح (٣١٠٤)، ٩/٦.

(٥) مسلم، الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، باب رغم أنف من أدرك أبويه أو أحدهما عند الكبر فلم يدخل الجنة، ح (٢٥٥١/٩)، ١٩٧٨/٤.

من؟، قال: «أمّك». قال: ثمّ من؟ قال: «ثمّ أبوك» [١]. ذلك لأنّ الإنسان يرى جهد أبيه في سبيله ورعايته له وإنفاقه عليه، ولكنّه لا يرى حمل أمّه إياه، وقيامها عليه في مهده، وسهرها عليه في طفولته، ومرضه، فكان هذا التأكّيد القرآني والهدي النبوي لتثبيت حقّ الأمّ ودورها الذي يجب ألّا يغيب عن الأذهان أبدًا.

لذلك فإنّ برّ الوالدين هو الإحسان إليهما، وطاعتهما وفعل الخيرات لهما، والعمل على رضاهما، وتجنب ما يغضبهما، ولا يقتصر برّ الوالدين في حياتهما، بل ويستمرّ بعد موتهما بالدعوة لهما بالرحمة والمغفرة، وتنفيذ عهودهما، وتكريم أصدقائهما والدعاء لهما، وأفضل الدعاء في السجود بالقول: «ربّ اغفر لي ولوالدي، ربّ ارحمهما كما ربياني صغيرًا». جاء رجلٌ من بني سلمة إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فقال: «يا رسول الله، هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به من بعد موتهما؟ قال: نعم؛ الصلاة عليهما (أي الدعاء لهما)، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلّا بهما، وإكرام صديقهما» [٢].

وقد نهى الإسلام عن عقوق الوالدين نهيًا قاطعًا جازمًا؛ فلا يجوز إهمال طاعتهما ورغباتهما، أو فعل ما قد يتسبّب بإيذائهما ولو بنظرة أو بكلمة صغيرة، ككلمة «**أُفّ**» حيث يقول تعالى: ﴿ **فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا** ﴾ **[الإسراء: ٢٣]**. كما إنّه لا يجوز الإتيان بأيّ عمل قد يسيء إليهما أو قد يدخل الحزن إلى قلبيهما، وقد قال الإمام علي رضي الله عنه: «من أحزن والديه فقد عقّهما».

وهذا النهي عن العقوق يبقى قاطعًا حتّى ولو كان الوالدان مشركين، وفي ذلك تقول السيّدة أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها: قَدِمَتْ عليَّ أمّي وهي مشركة في عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فاستَفْتَيْتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم،

---

(١) - البخاري، الصحيح، كتاب الأدب، باب من أحق الناس بحسن الصحبة، ح (٨٥٥)، ٣١٥/٨.
- مسلم، الصحيح، كتاب البر والصلاة والآداب، باب بر الوالدين وأنهما أحق به، ح (١/ ٢٥٤٨)، ١٩٧٤/٤.

(٢) ابن ماجه، السنن، كتاب الأدب، باب صل من كان أبوك يصل، ح (٣٦٦٤)، ١٢٠٨/٢.

قلتُ: إنّ أمّي قدمت وهي راغبة (أي طامعة في ما عندي من برٍّ لها) أَفَأَصِلُ أمّي؟ فقال صلّى الله عليه وسلّم: «نعم صلي أمَّكِ؟»[١].

والله تعالى يعجّل عقوبة العاقّ لوالديه في الدنيا، فقد قال صلّى الله عليه وسلّم: «كلّ ذنوب يؤخّر الله منها ما شاء إلى يوم القيامة، إلّا البغي وعقوق الوالدين أو قطيعة الرحم، يعجّل لصاحبها في الدنيا قبل الموت»[٢].

ويقول عليه الصلاة والسلام أيضًا: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: العاقّ لوالديه والديّوث ورجلة النساء»[٣].

وفي هذا السياق، يمكن القول إنّ المسلم إذا كان بارًا بوالديه محسنًا إليهما فإنّ الله تعالى سوف يرزقه أولادًا بررة، سوف يحسنون إليه، كما كان يفعل مع والديه قبل ذلك، وقد روي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه كان يقول: «عِفّوا عن نساء الناس تعفّ نساؤكم، وبرّوا آباؤكم تبرّكم أبناؤكم»[٤].

ولكي ندرك أهمّيّة هذه النعمة والمكرمة في المجتمع، علينا أن نتخيّل فقدانها، وهذا ما أصبح مألوفًا في المجتمعات الغربيّة «المتقدّمة». حيث إنّ الشاب أو الفتاة بمجرّد أن يستقلّ اقتصاديًا عن والديه، تبدأ حياته بالانفصال الكامل عنهما، فلا يزورهما إلّا في المناسبات القليلة جدًا. فالحضارة الماديّة أجهضت العلاقات الأسريّة عمومًا، وفي مقدّمها برّ الوالدين. فانتشرت مراكز «رعاية المسنين» التي تهدف إلى تقديم الرعاية الصحّيّة اللازمة للمسنّين، وملء الفراغ عندهم، وهذه أهداف طيّبة ولا شكّ. لكنّ هذه المراكز سرعان ما تحوّلت إلى مأوًى للمسنّين، فانسلخوا عن أبنائهم وعائلاتهم، وتراجع اهتمام الأبناء المباشر بوالديهم، فأوكلوا ذلك إلى مراكز الرعاية. وبات الآباء والأمّهات، وقد بلغوا من الكبر عتيًّا، يفتقدون

---

(١) البخاري، الصحيح، كتاب الهبة، باب الهدية للمشركين، ح (٨٣٠)، ٣/٣٢٩.

(٢) البخاري، الأدب المفرد، باب البغي، ح (٥٩١).

(٣) الحاكم، المستدرك على الصحيحين، كتاب الإيمان، ح (٢٤٤/٢٤٤)، ١/١٤٤.

(٤) الحاكم، المستدرك على الصحيحين، كتاب البر والصلة، ح (٧٢٥٨/١٩)، ٤/١٧٠.

حنان أولادهم وعطفهم ورعايتهم، وهم أحوج ما يكونون إليه، خصوصًا أنّهم في الماضي قد أغدقوا عليهم كلّ الحبّ والحنان عندما كانوا صغارًا ليكبروا. فتفكّكت بذلك العلاقات الأسريّة، وكان ذلك بدء تفكّك العلاقات المجتمعيّة، لتصبح هذه العلاقات محكومة بالمصالح المادّيّة دون غيرها، فانعدم الوفاء والتقدير والعرفان، وحلَّ محلّه الجحود والنكران. وقد ذكر الرسول عليه الصلاة والسلام أنَّ من علامات الساعة «أن تلد الأَمَةُ ربّتها»[1] (أي سيّدها) كما ورد في الحديث الشريف، أي أن تلد المرأة من يعاملها معاملة السيّد لجاريته.

* الصبر:

الصبر هو القدرة على تحمّل المصائب والشدائد، والقبول بها بنفس راضية، من دون خوف أو جزع أو وجل. وهو قوّة خلقيّة وجهاد نفسيّ يمكّن الإنسان من ضبط نفسه لمواجهة المتاعب والمشقّات والآلام التي تنزل به.

وقد أمر الله به في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٣].

والصبر طريق إلى الإمامة والهداية، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة: ٢٤].

والصبر من أفضل نعم الله على الإنسان، فقد أخرج البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري: أنّ ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأعطاهم، ثمّ سألوه فأعطاهم، حتى نَفِد ما عنده، فقال: «ما يكون عندي من خير فلن أدّخره عنكم، ومن يَستَعْفِفْ يُعِفّه الله، ومن يستغن يُغْنِهِ الله، ومن يَتَصَبَّر

---

(١) مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى وبيان الدليل على التبري ممن لا يؤمن بالقدر وإغلاظ القول في حقه، ح (٨/١)، ٣٦/١.

يُصَبِّره الله، وما أعطيَ أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر»[١].

والصبر أنواع، منها الصبر على أداء الطاعات والقيام بالعبادات، يقول تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه: ١٣٢]، «واصطبر» هي صيغة المبالغة بالمقارنة مع «واصبر»، لأنّ ذلك يتطلّب مجاهدة النفس، وخصوصًا مع بدء أمر الأولاد بالصلاة، وكذلك الصيام ففيه مواجهة الجوع والعطش والصبر عليهما، وخاصّة في أيّام الصيف حيث يشتدّ الجوع والعطش ويطول النهار، وكذلك الحجّ وما فيه من مشقّة في السفر، وفي أداء المناسك، ولذلك يؤكّد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على الصائم والحاجّ عدم الرفث والفسوق، وهو ما يتطلّب الصبر وضبط النفس، لما في هاتين العبادتين من مشقّة وتعب قد تدفع الإنسان إلى ما لا تحمد عقباه، ولذلك كانت دعوة النبيّ عليه الصلاة والسلام لضبط النفس وعدم الرفث والفسوق والجدال الذي لا طائل منه.

والصبر في الدعوة إلى الله أيضًا مطلوب، وهو جهاد فعليّ في سبيل الله. يقول الله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ [الكهف: ٢٨]، وكذلك في الدعاء حتى تتحقّق الإجابة، وفي الجهاد ضدّ الأعداء.

أمّا الصبر عن المعاصي، فهو صبر الإنسان أمام ما ينتابه من رغبة في إتيان ملذّات الدنيا، وشهواتها، فقد فطر الله الإنسان على حبّ الدنيا وزينتها من المال والنساء والطعام وغيرها.

يقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «حُفَّتِ الجنّة بالمكاره وحُفَّتِ النار بالشهوات»[٢]، فطريق الشرّ مزيّنة دائمًا بشهوات الدنيا وغواية الشيطان، وقد شرع الله لنا هذه الشهوات والملذّات فقط ضمن الحدود التي تستقيم بها أمور الدنيا، وتتماشى مع الأصول الدينيّة من دون إسراف أو تقتير، وهذا ما يتطلب جهادًا

(١) البخاري، الصحيح، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، ح (١٣٧٤)، ٢/٦٢٠.
(٢) مسلم، الصحيح، كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها، ح (١/٢٨٢٢)، ٤/٢١٧٤.

في النفس، وصبرًا على عدم ارتكاب الحرام. فالصبر على ما حرّمه الله يكون بالإمساك عن المعاصي.

أمّا النوع الثالث من الصبر فهو الصبر على المصيبة التي قد تنزل بالإنسان، يقول تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَ�ٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ **[البقرة: ١٥٥ – ١٥٧]**، ولا تخلو الحياة من هذه المصائب، فالموت واقع لا محالة، يقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ الله لا يرضى لعبده المؤمن – إذا ذهب بصَفِيّه من أهل الأرض، فصبر واحتسب وقال ما أُمر به – بثواب دون الجنة»[(١)]؛ ويقول عليه الصلاة والسلام: «من أصيب بمصيبة في ماله أو جسده، وكتمها ولم يشكها إلى الناس كان حقًّا على الله أن يغفر له».

ونبيّ الله أيّوب عليه السلام كان رجلًا كثير المال والأهل، فابتلاه الله واختبره في ذلك كلّه، فأصابته الأمراض، وظل ملازمًا لفراش المرض سنوات طويلة، وفقد ماله وأولاده، ولم يبق له إلّا زوجته التي وقفت بجانبه صابرة محتسبة وفيّةً له. فكان مؤمنًا بقضاء الله، وظلَّ لسانه ذاكرًا وقلبه شاكرًا، حتى أمره الله أن يضرب الأرض برجله، ليُخرج اللهُ له ماءً باردًا يغتسل به ويشرب منه، فأذهب الله عنه الأذى والألم والمرض، وأبدله صحّة وجمالًا ومالًا كثيرًا، وعوّضه بأولاد صالحين جزاءً له على صبره: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾ **[ص: ٤٣]**. ولذلك كان «صبر أيّوب» مضرب الأمثال.

يروى عن القاسم بن محمّد أنّه قال: هلكت امرأة لي، فأتاني محمّد ابن كعب القُرَظِي يُعزّيني بها فقال: إنّه كان في بني إسرائيل رجل فقيه، عالم عابد مجتهد، وكانت له امرأة كان بها معجبًا فماتت، فوجد عليها وجْدًا شديدًا (أي حزن حزنًا

(١) النسائي، السنن الكبرى، كتاب الجنائز باب ثواب من صبر واحتسب، ح (١٨٧١٩)، ١٨/٤.

شديدًا)، حتى دخل في بيت وأغلق على نفسه واحتجب، فلم يكن يدخل عليه أحد. فسمعت به امرأة من بني إسرائيل فجاءته فقالت: إنّ لي حاجة أستفتيه فيها، ليس يجزيني إلّا أن أشافهه بها. ولزمتْ بابه؛ فأُخبر بها، فأذن لها. فقالت: أستفتيك في أمر. قال: وما هو؟ قالت: إني استَعَرْتُ من جارة لي حليًّا، فكنت ألبسه زمانًا، ثمّ إنّها أرسلت تطلبُهُ، أفأردّه إليها؟ قال: نعم والله!! قالت: إنّه قد مكث عندي زمانًا!! فقال: ذاك أحقُّ لردّك إيّاه! فقالتْ: يرحمُكَ الله، أفتأسف على ما أعاركَ الله، ثمّ أخذَهُ مِنك، وهو أحقّ به مِنكَ؟! فأبْصَرَ ما كان فيه ونفعه الله بقولها.

والصبر على احتمال أذى الآخرين مطلوب، والأقوى منه مقابلته بالعفو والمسامحة، يقول تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [النحل: ١٢٦]، ويقول أيضًا: ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

يروى أنّ رجلًا صالحًا كانت له جارية وكانت تغلي الماء، وبينما كان يمرّ قرب الموقد، صَدَرَتْ عنها حركةٌ فانقلب القِدْرُ الذي فيه الماء. فأصابه شيء منه، فغضب، فذكَّرته بالآية: ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ ، فقال: «كظمتُ غيظي»، ثمّ قالت له: ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾، قال: «عفوتُ عنكِ»، ثمّ قالتْ: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فقال: «اذهبي فأنتِ حرّة في سبيل الله».

وصَبْر الأنبياء على أذى الناس هو أعلى أنواع الصبر، وقد جعلهم الله مثلًا وأسوة حيث يقول تعالى مخاطبًا نبيّه محمّدًا عليه الصلاة والسلام: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ويقول أيضًا: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ﴾ [الأنعام: ٣٤]. عن عائشة رضي الله عنها قالت: «إن كان ليأتي على آل محمّد صلّى الله عليه وسلّم الشهر ونصف الشهر وما يوقد في بيوتهم نار لمصباح ولا لغيره. قلت لها: ما كان

يعيشكم؟ قالت: التمر والماء»[١].

ولقد تحمّل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في سبيل الله ونشر الدعوة الكثير من الأذى والمشاقّ، فكان جيرانه من المشركين يلقون القاذورات أمام بيته، فصبر واحتسب، وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: «كأنّي أنظر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يحكي (أي يشبه) نبيًّا من الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - ضربه قومه فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: «اللهمّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[٢].

وفي قصص الأنبياء أمثلة كثيرة عن صبرهم وتحمّلهم لأذى قومهم في سبيل الدعوة إلى الله. يقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «المسلم إذا كان مخالطًا الناس ويصبر على أذاهم، خير من المسلم الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»[٣].

ومن الأمور التي تعين على الصبر[٤]:

- معرفة أنّ الحياة الدنيا زائلة لا دوام فيها.

- معرفة الإنسان أنّه مُلْكٌ لله - تعالى - أوّلًا وأخيرًا، وأنّ مصيره إلى الله تعالى.

- التيقّن بحسن الجزاء عند الله، وأن الصابرين ينتظرهم أحسن الجزاء من الله، قال تعالى: ﴿ **وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ** ﴾ **[النحل: ٩٦].**

---

(١) - مسلم، الصحيح، كتاب الزهد والرقائق، ح (٢٩٧٢/٢٦)، ٢٢٨٢/٤.
- الحاكم، المستدرك على الصحيحين، كتاب الأطعمة، ح (٧٠٧٧/٦)، ١١٨/٤.

(٢) البخاري، الصحيح، كتاب الأنبياء عليهم السلام، باب (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم)، ح (١٣)، ١٠/٥.

(٣) الترمذي، الجامع الصحيح، كتاب صفة القيامة، والرقائق والورع، ح (٢٥٠٧)، ٦٦٢/٤.

(٤) الموقع الالكتروني، موسوعة الأسرة المسلمة.

- اليقين بأنّ نصر الله قريب، وأنّ فرجه آت، وأنّ بعد الضيق سعةً، وأنّ بعد العسر يسرًا، وأنّ ما وعد الله به المبتلين من الجزاء لا بدّ أن يتحقّق. قال تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ ﴾ [الشرح: ٥ - ٦].

- الاستعانة بالله واللجوء إلى حِماه، فيشعر المسلم الصابر بأنّ الله معه، وأنّه في رعايته. قال الله - تعالى - : ﴿ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦].

- الاقتداء بأهل الصبر والعزائم، والتأمّل في سيَر الصابرين وما لاقوه من ألوان البلاء والشدائد، وبخاصّة أنبياء الله ورسله.

- الإيمان بقدر الله، وأنّ قضاءه نافذ لا محالة، وأنّ ما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه. قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٢٢ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [الحديد: ٢٢ - ٢٣].

- الابتعاد عن الاستعجال والغضب وشدّة الحزن والضيق واليأس من رحمة الله؛ لأنّ كلّ ذلك يضعف من الصبر والمثابرة.

* الحياء:

الحياء شعبة من شعب الإيمان كما يقول النبيّ عليه الصلاة والسلام: «الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان»[(١)].

والحياء خلق كريم يبعث على اجتناب القبيح ويمنع من التقصير في حقّ ذوي الحقوق، وينشأ من الخوف من الله، واستشعار مراقبته. وفي اللغة هو تغيّر وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يُعاب به. وهو يعصم المرء من مزالق الشرّ، ويُفضي إلى مسالك البر والفضيلة والخير.

---

(١) - البخاري، الصحيح، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، ح (٨)، ١/٦.
- مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان، ح (٣٥/٥٨)، ١/٦٣.

والحياء، خُلُقٌ دعت إليه الرسالات السماويّة جميعًا، يقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ ممّا أدرك النَّاسَ من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت» [١] أي إنّ من لم يستح، دعاه تركُ الحياء إلى أن يعمل ما يشاء، لا يردعه عنه رادع.

ومن أحاديث النبيّ عليه الصلاة والسلام في الحياء أنّه قال:

«الحياء كلّه خير» [٢]

«الحياء لا يأتي إلّا بخير» [٣]

«إنّ الحياء والإيمان قُرِنا جميعًا، فإذا رُفِعَ أحدُهما رُفِعَ الآخر» [٤]

«إنّ لكلّ دينٍ خُلُقًا، وخُلُقُ الإسلام الحياء» [٥]

مرّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم برجل من الأنصار وهو يعظ أخاه بالتخفيف من حيائه، فقال له النبيّ عليه الصلاة والسلام: «دعه فإنّ الحياء من الإيمان» [٦].

يقول الشاعر:

إذا لـــم تخـــش عاقـــبة الليالـــي ولـــم تـــستحْيِ فاصـــنع مـــا تـــشاءُ

---

(١) البخاري، الصحيح، كتاب الأدب، باب إذا لم تستحي فاصنع ما شئت، ح (٩٩٧)، ٣٥٧/٨.

(٢) مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان، ح (٣٧/٦١)، ٦٤/١.

(٣) - البخاري، الصحيح، كتاب الأدب، باب الحياء، ح (٩٩٤)، ٣٥٧/٨.
- مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، باب بيان شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان، ح (٣٧/٦٠)، ٦٤/١.

(٤) البخاري، الأدب المفرد، باب الحياء، ح (١٣١٣).

(٥) ابن ماجه، السنن، كتاب الزهد، باب الحياء، ح (٤١٨١)، ١٣٩٩/٢.

(٦) - البخاري، الصحيح، كتاب الإيمان، باب الحياء من الإيمان، ح (٢٣)، ٧٤/١ [واللفظ له]
- مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان، ح(٣٦/٥٩)، ٦٣/١.

فــلا والله مــا فــي العــيش خيــرٌ ولا الدنـــيا إذا ذهـــب الحـــياءُ
يعــيش المــرء مــا اســتحيا بخيــرٍ ويبقــى العــود مــا بقــي اللحــاءُ

(واللحاء هو قشر الشجر)

والحياء في الإنسان على ثلاثة أوجه: حياءٌ من الله تعالى، وحياء من الناس، وحياء من النفس.

والحياء من الله تعالى هو أن يمتلئ قلب المؤمن بالخوف والمهابة من الله والخشوع بين يديه، وأن تمتلئ نفسه بالوقار والتعظيم له؛ فلا يرتكب المعاصي، أو يجاهر بها، ولا يفعل القبائح والرذائل، لأنّه يعلم أنّ الله مُطَّلِعٌ عليه يسمعه ويراه فإذا ما وقع في معصية أو ذنب، دفعه حياؤه إلى ذكر الله والاستغفار والتوبة والندم. وقد روى الترمذي وأحمد أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال لأصحابه: «استحيوا من الله حقّ الحياء» فقالوا: إنّا نستحيي والحمد لله، قال: «ليس ذلك، ولكنّ الاستحياء من الله حقّ الحياء: أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، ولْتذْكر الموت والبِلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء»[1].

يروى أن رجلًا جاء إلى إبراهيم بن أدهم، فقال له: «يا إمام، أريد أن أتوب وأن أترك الذنوب، وإذا بي أعود إليها، دلّني على أشياء تعصمني فلا أعصي الله». فقال له إبراهيم بن أدهم: «إن أردت أن تعصي الله فلا تعصه على أرضه!» فقال الرجل: كيف يا إمام والأرض كلّها لله؟، فقال إبراهيم: «أما تستحيي أن تكون الأرض كلّها لله وتعصيه على أرضه؟» ثمّ قال إبراهيم: «وإن أردت أن تعصيه فلا تأكل من رزقه»، قال الرجل: «فكيف أحيا وكلّ الرزق رزق الله؟»، فقال إبراهيم: «أما تستحيي أن تأكل من رزقه ثمّ تعصيه؟»، ثمّ قال إبراهيم: «فإن أبيت إلّا أن تعصي الله فاعْصِهِ في مكان لا يراك فيه!»، فقال الرجل: «فكيف ذلك وهو معنا أينما كنّا؟»، فقال إبراهيم: «أما تستحيي أن تعصيه وهو معك قريب منك؟»، ثمّ قال إبراهيم:

(١) الترمذي، الجامع الصحيح، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، ح (٢٤٥٨)، ٤/٦٣٧.

«فإن أبيت إلّا أن تعصي الله، فإن جاءك ملك الموت ليأخذ روحك، فقل له: أنظرني حتى أتوب!» فقال الرجل: «ومن يملك ذلك؟»، فقال إبراهيم: «أما تستحيي أن يأتي ملك الموت ويأخذ روحك وأنت على المعصية؟»، ثمّ قال إبراهيم: «فإن أبيت إلّا أن تعصي الله، فإذا جاءتك زبانيّة جنهم يأخذونك إلى النار فقل لهم لن أذهب معكم»، فقال الرجل: «وكيف ذلك يا إمام؟»، فقال إبراهيم: «أما تستحيي من الله بعد كلّ هذا؟».

والحياء من الناس يكون بعدم التقصير في حقوقهم وعدم إنكار معروفهم، أو مخاطبتهم أو معاملتهم بسوء، كما يكون في غضّ البصر عن الحرام، وعدم استعمال الكلام الفاحش، أو القيام بتصرفات بذيئة تؤذي الناس. يقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنّة، والبذاء (أي سوء الأدب) من الجفاء (أي غلظة القلب)، والجفاء في النار»[١]. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أشد حياءً من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئًا يكرهه عرفناه في وجهه»[٢].

يقول النبيّ عليه الصلاة والسلام: «إن الله عزّ وجلّ إذا أراد أن يُهلك عبدًا نزع منه الحياء، فإذا نزع منه الحياء لم تَلْقَهُ إلّا مَقيتا مُمَقَّتًا، فإذا لم تلقه إلّا مقيتا ممقتًا، نُزِعَتْ منه الأمانة، فإذا نزعت منه الأمانة، لم تلقه إلّا خائنًا مُخَوَّنًا، فإذا لم تلقه إلّا خائنًا مخونًا نزعت منه الرحمة، فإذا نزعت منه الرحمة لم تلقه إلّا رَجيمًا ملَعَّنًا، فإذا لم تلقه إلّا رجيمًا مُلَعَّنًا نزعت منه رِبْقَةُ الإسلام»[٣].

أما حياء الإنسان من نفسه، فيكون بالعفّة وصيانة الخلوات. قال بعض

---

(١) البخاري، الأدب المفرد، باب الجفاء، ح (١٣١٤).

(٢) - البخاري، الصحيح، كتاب الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب، ح (٩٨٠)، ٣٥٣/٨ [واللفظ له].

- مسلم، الصحيح، كتاب الفضائل، باب كثرة حيائه صلّى الله عليه وسلّم، ح (٢٣٢٠/٦٧)، ١٨٠٩/٤.

(٣) ابن ماجه، السنن، كتاب الفتن، باب ذهاب الأمانة، ح (٤٠٤٥)، ١٣٤٧/٢.

الحكماء: «ليكن استحياؤك من نفسك أكثر من استحيائك من غيرك». ويقول بعض الأدباء: «من عمل في السرّ عملًا يستحيي منه في العلانيّة، فليس لِنَفْسِهِ عِندَهُ قدر».

لذلك كان الحياء شعبة من الإيمان، ومن تمتّع به فقد صفت سريرته وسَمَتْ عِشْرَتُه وحَسُنَ خُلُقُه.

* الصدق:

الصدق هو قول الحقّ، وهو صفة من صفات الأنبياء. كان لقب النبيّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم قبل البعثة: الصادق الأمين. وقد أمر الله به في القرآن الكريم حيث يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ **[التوبة: ١١٩].**

وكلام الله عزّ وجلّ وما جاءت به الكتب السماويّة هو أصدق الكلام: ﴿ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴾ **[النساء: ١٢٢]**، ﴿ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴾ **[النساء: ٨٧].**

كما وصف الله عزّ وجلّ أنبياءه بالصدق، فقال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ ﴾ **[مريم: ٤١]**، وقال عن إسماعيل عليه السلام: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾ ﴾ **[مريم: ٥٤]**، وعن يوسف عليه السلام: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ ﴾ **[يوسف: ٤٦]**، وعن إدريس عليه السلام: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ ﴾ **[مريم: ٥٦].**

وصِدْقُ الأنبياء ضرورةٌ من ضرورات الدعوة إلى الله، لأنّهم حملوا رسالة الدعوة وفيها من الأمور الغيبيّة ما لا تراه الأعين، ولم تسمعه الآذان من قبل. وعندما دعا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الناس ليجهر بالدعوة كما أمره الله: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾ **[الحجر: ٩٤]**، وقال لهم: «أرأيتكم لو أخبرتكم أنّ خيلًا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدّقيّ»، قالوا: «نعم ما جرّبنا عليكم إلّا

صدقًا»[١]. وعندما جاء الناس إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه يصفون حديث الرسول عليه الصلاة والسلام - بعد أن أُسري به إلى بيت المقدس وعُرِج به إلى السماء - حول ما رأى في رحلته، ومن بينهم بعض المسلمين، وهم يتعجّبون وغير مصدّقين، قال لهم أبو بكر: «إن كان قالها فقد صدق».

والمسلم يكون صادقًا مع الله أوّلًا في إخلاصه له في كلّ أعماله، بدون رياء ولا ادّعاء، ومن لم يخلص النيّة في عمله لله، لم يتقبل الله منه عمله. كما عليه أن يكون صادقًا مع الناس جميعًا، ومع نفسه فلا يكذب في حديثه مع الآخرين، وقد ورد في الحديث النبويّ الشريف: «كَبُرَتْ خيانةً أن تحدّث أخاك حديثًا هو لك مُصدِّق، وأنت له كاذب»[٢]. والصدق هو الطريق إلى النجاة كما يقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «تحرُّوا الصدق، وإن رأيتم أنّ فيه الهلكة، فإنّ فيه النجاة، وتجنَّبوا الكذب، وإن رأيتم أنّ فيه النجاة، فإنّ فيه الهلكة»[٣]. ويقول عمر بن الخطّاب رضي الله عنه: «لأن يَضَعُني الصدق، وقلَّما يضع، أحبّ إليّ من أن يرفعني الكذب، وقلّما يفعل». ويقول بعض الحكماء: «الصدق منجِّيك وإن خفتَه، والكذب مُرْديك وإن أمنتَه».

والصدق هو الطريق إلى الجنّة، وقد ورد ذلك عن النبيّ عليه الصلاة والسلام في عدّة أحاديث: «من يضمن لي ما بين لَحْيَيْه، وما بين رجليه أضمن له الجنّة»[٤]،

---

(١) - البخاري، الصحيح، كتاب التفسير، باب قوله تعالى "وأنذر عشيرتك واخفض جناحك" ألن جناحك، ح(١١٩٤)، ٤٧٦/٦.

- مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى "وأنذر عشيرتك الأقربين"، ح (٣٥٥/ ٢٠٨)، ١٩٣/١.

(٢) البخاري، الأدب المفرد، باب إذا كذبت لرجل هو لك مصدق، ح (٣٩٣).

(٣) البخاري، الصحيح، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان وقول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: "ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت وقوله تعالى: ما يلفظ من قول إلّا لديه رقيب عتيد، ح (١٣٣٩)، ٤٧٢/٨.

(٤) مسلم، الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، ح (٢٦٠٧/١٠٣)، ٢٠١٢/٤.

ويقول أيضًا: «إنّ الصدق يهدي إلى البرّ، وإنّ البرّ يهدي إلى الجنّة، وإنّ الرجل لَيَصْدُق حتى يُكتب عند الله صدِّيقًا. وإنّ الكذب يهدي إلى الفجور وإنّ الفجور يهدي إلى النار. وإنّ الرجل ليكذب حتى يُكتب كذَّابًا»[١].

والكذب من صفات المنافقين، يقول النبيّ عليه الصلاة والسلام: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»، ويقول تعالى: ﴿ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ [الأحزاب: ٢٤].

وفي قصّة الصحابيّ كعب بن مالك، أحد الثلاثة الذين تخلَّفوا عن الجهاد مع النبيّ عليه الصلاة والسلام في معركة تبوك، مثل وعبرة، فعندما عاتبه النبيّ قائلًا: «تعال» فجاء كعب حتى جلس بين يديه فقال له - عليه الصلاة والسلام: «ما خلَّفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟» (أي ألم تكن قد اشتريت جملًا) فقال كعب: «يا رسول الله إنّي والله لو جلستُ عند غيرِك من أهل الدنيا، لرأيتُ أنّي سأخرج من سَخَطِهِ ولقد أُعطيتُ جدلًا، ولكن والله لقد علمتُ لئن حدّثتُك اليوم حديث كذبٍ لترضى به عني ليوشك أنّ الله عزّ وجلّ يُسخِطُكَ عليّ، ولئن حدَّثتك حديث صدقٍ تجدُ عليّ فيه (أي تغضب علي)، إنّي لأرجو فيه عفو الله. والله ما كنتُ قطّ أقوى ولا أيسر منّي حين تخلّفت عنك». فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أمّا هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك»[٢]. وبعد أن قاطعهم الصحابة عن الكلام خمسين يومًا، نزل قول الله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ

---

(١) - البخاري، الصحيح، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، ح (٣٢)، ١/٨٠.

- مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، ح (٥٩/١٠٧)، ١/٧٨.

(٢) النسائي، كتاب المساجد، باب الرخصة في الجلوس فيه والخروج منه بغير صلاة، ح (٧٣١)، ٢/٤٠.

﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٨ - ١١٩] عندئذٍ دخل كعب بن مالك على النبيّ عليه الصلاة والسلام، فاستنار وجهه، وقال له كعب: يا رسول الله، والله ما نجَّاني إلّا الصدق، وإن من توبتي ألّا أحدِّث بعد ذلك إلّا صدقًا».

يقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أنا زعيم ببيت في ربض الجنّة لمن ترك المراء وإن كان محقًّا، وببيت في وسط الجنّة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وببيت في أعلى الجنّة لمن حسن خلقه»[١].

❖ **الإخلاص:**

ومن مكارم الأخلاق، **الإخلاص**، وهو الباعث الذي يدفع الإنسان ليبذل ما في وسعه ليقدّم أحسن ما عنده، في عمله وعباداته ومعاملاته وعلاقاته مع الناس. «والإخلاص يسطع شعاعه في النفس، وهو أشدّ ما يكون تألّقًا في الشدائد المحرجة»[٢]. وقد أورد الطبراني، عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «إذا كان يوم القيامة صارت أمّتي ثلاث فرق، فرقة يعبدون الله عزّ وجلّ خالصًا، وفرقة يعبدون الله عزّ وجلّ رياءً، وفرقة يعبدون الله يصيبون به دنيا. قال: فيقول للذي كان يعبد الله عزّ وجلّ للدنيا: بعزّتي وجلالي ما أردتَ بعبادتي؟ فيقول: الدنيا. فيقول: لا جرم لا ينفعك ما جمعت ولا ترجع إليه إنطلقوا به إلى النار. قال: ويقول للّذي يعبد الله عزّ وجلّ رياءً، بعزّتي وجلالي ما أردتَ بعبادتي؟ قال: الرياء. قال: يقول: إنّما كانت عبادتك التي كنت ترائي بها لا يصعد إليّ منها شيء ولا ينفعك اليوم، انطلقوا به إلى النار. قال: ويقول للّذي كان يعبد الله عزّ وجلّ خالصًا: بعزّتي وجلالي ما أردتَ بعبادتي؟ فيقول: بعزّتك وجلالك لأنت أعلم به منّي كنت أعبدك لوجهك ولدارك. قال: صدق عبدي انطلقوا به إلى الجنّة»[٣].

---

(١) أبو داود، السنن، كتاب الأدب، باب في حسن الخلق، ح (٤٨٠٠)، ص ٧٥٥.

(٢) خلق المسلم. محمّد الغزالي. دار القلم، دار القلم، ط٢١، ٢٠٠٤.

(٣) البيهقي، شعب الإيمان، الخامس والأربعون من شعب الإيمان وهو باب في إخلاص العمل لله، ح (٦٨٠٨).

* الحلم والرفق والأناة:

ومن مكارم الأخلاق **الحلم والرفق والأناة**؛ وهذا يعني ضبط النفس، وكظم الغيظ، والعفو عند المقدرة. وقد روي عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال لأحد أصحابه: «إنّ فيك خصلتين يحبّهما الله: الحلم والأناة»[(١)]، والحِلم لا يعني الرضا بالذل والهوان، وهو من خُلُقِ الأنبياء عليهم السلام. يقول تعالى في إبراهيم عليه السلام: ﴿ **إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ** ﴾ **[التوبة: ١١٤]**، وفي اسماعيل عليه السلام: ﴿ **فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ** ﴿١٠١﴾ ﴾ **[الصافات: ١٠١]**، وفي شعيب عليه السلام: ﴿ **إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ** ﴾ **[هود: ٨٧]**. كما يروى أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أراد أن يعلّم أصحابه يومًا وقد جاءه أعرابي يطلب منه شيئًا، فأعطاه، ثمّ قال له: «أحسنتُ إليك؟»، فقال الأعرابي: لا أحسنتَ ولا أجملتَ! فغضب المسلمون وقاموا إليه. فأشار إليهم أن كُفوا. ثمّ قام ودخل منزله فأرسل إليه، وزاده شيئًا، ثمّ قال: «أحسنت إليك؟». قال: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرًا. فقال له النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «إنّك قُلْتَ ما قلت آنفًا، وفي نفس أصحابي من ذلك شيء. فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلتَ بين يديّ حتى يذهب ما في صدورهم عليك». قال: نعم، فلما كان الغد جاء، فقال النبيّ عليه الصلاة والسلام: «إنّ هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه فزعم أنّه رضي. أكذلك؟». قال الأعرابي: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرًا. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مثلي ومثل هذا كمثل رجل له ناقة شردت عليه، فأتبعها الناس (أي ركضوا خلفها)، فلم يزيدوها إلّا نفورًا. فناداهم صاحبها، فقال لهم: خلُّوا بيني وبين ناقتي، فإني أرفق بها منكم وأعلم... فتوجّه لها بين يديها، فأخذ من تمام الأرض، (أيّ من حشائش الأرض) فردَّها حتى جاءت واستناخت. وشدّ عليها رحلها واستوى عليها. وإنّي لو تركتكم حيث قال الرجل ما

---

(١) مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، باب بيان الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وسلّم وشرائع الدين والدعاء إليه والسؤال عنه وحفظه وبتبليغه من لم يبلغه، ح (١٧/٢٥)، ٤٨/١.

قال، فقتلتموه، دخل النار». وفي مكرمة الرفق يقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إن الله رفيق يحبّ الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على سواه» (١)، كما يقول أيضًا: «إن الرفق لا يكون في شيء إلّا زانه ولا يُنزع من شيء إلّا شانه» (٢)، ويقول أيضًا: «الرفق في الأمور كالمسك في العطور». وقديمًا قيل: «الحلم سيّد الأخلاق». ويروى أنّ الخليفة عمر بن عبد العزيز خرج ليلًا يتفقّد أحوال رعيّته، وكان في صحبته أحد أفراد الحاشية، فدخلا مسجدًا ليس به ضوء أو سراج، فتعثّر عمر برجل نائم، فرفع الرجل رأسه وقال لعمر: أمجنون أنت؟ فقال عمر: لا. وأراد صاحبه أن يضرب الرجل. فقال له عمر: لا تفعل، إنّما سألني: أمجنون أنت؟ فقلت له: لا!

وقد كان الأحنف بن قيس، شديد الحلم، حتى صار يضرب به المثل في تلك المكرمة، فيقال: «أحلم من الأحنف». ويحكى أنّ رجلًا شتمه، فلم يردَّ عليه ومشى في طريقه، ومشى الرجل وراءه وهو يزيد في شتمه، فلمّا اقترب الأحنف من الحيّ الذي يعيش فيه، وقف، وقال للرجل: إن كان قد بقي في نفسك شيء فقله قبل أن يسمعك أحد من الحيّ فيؤذيك.

❖ **ومن مكارم الأخلاق: الأمانة والوفاء بالعهود:**

والأمانة هي أداء الحقوق إلى أصحابها. والوفاء هو الالتزام بأداء الإنسان ما عليه من عهود ووعود وأمانات.

يقول تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨]، ويقول أيضًا: ﴿ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴾ [الإسراء: ٣٤].

ويقول عليه الصلاة والسلام: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد

(١) مسلم، الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، ح (٢٥٩٣/٧٧)، ٤/ ٢٠٠٣.

(٢) مسلم، الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، ح (٢٥٩٤/٧٨)، ٤/ ٢٠٠٤.

له»[١]. والأمانة تكون مع الله في التزام المرء بعبادته وبالتكاليف التي فرضها الله عليه، كما تكون في حفظ الجوارح، وأداء حقوق نعم الله الوافرة. كما تكون مع الناس في حفظ ودائعهم وحقوقهم. والأمانة كذلك تكون في العمل بأداء الإنسان ما يجب عليه بإتقان وإخلاص، وعلى أحسن وجه يستطيعه.

وكذلك الوفاء بالعهود والعقود والمواثيق، فإنّها أمر من الله عزّ وجلّ، يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ﴾ **[المائدة: ١]**، ويقول عليه الصلاة والسلام: «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»[٢]. كما يأمر الإسلام بالوفاء بالكيل، حيث يقول تعالى: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ ﴾ **[هود: ٨٥]**، وفي آيات أخرى يقول تعالى: ﴿ وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ۝٣ ﴾ **[المطففين: ١ – ٣].**

* ومن مكارم الأخلاق: الجود والكرم:

والكرم ليس فقط بذل المال، وإنّما «يطلق الكرم على كلّ ما يحمد من أنواع الخير، كالشرف والجود والعطاء والإنفاق. وقد سئل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: من أكرم الناس؟ قال: «أتقاهم لله». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: فأكرم الناس يوسف نبيّ الله، ابن نبيّ الله، ابن خليل الله»[٣]، وقد وصف النبيّ عليه الصلاة والسلام يوسف عليه السلام بالكرم لأنّه اجتمع له شرف النبوّة والعلم والجمال والعفّة وكرم الأخلاق والعدل ورياسة الدنيا والدين، وهو نبيّ ابن نبيّ ابن نبيّ.

---

(١) ابن بلبان، الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، كتاب الإيمان، باب فرض الإيمان، ح (١٩٤)، ٢٠٨/١.

(٢) – البخاري، الصحيح، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، ح (٣٢)، ٨٠/١.
– مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان باب بيان خصال المنافق، ح (٥٩/١٠٧)، ٧٨/١.

(٣) البخاري، الصحيح، كتاب الأنبياء عليهم السلام، باب قول الله تعالى: "لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين"، ح (١٥٣٩)، ٦٠٩/٤.

وتروي أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنّهم ذبحوا شاة، ثمّ وزعوها على الفقراء فسأل النبيّ عليه الصلاة والسلام عائشة: «ما بقي منها؟»، فقالت: «ما بقي إلّا كتفها». فقال النبيّ عليه الصلاة والسلام: «بقي كلّها غير كتفها»[١].

والكرم يكون مع الله بالإحسان في العبادة والطاعة، والشكر على النعمة، ويكون مع النبيّ عليه الصلاة والسلام باتّباع سننه والتأسِّي به والسير على هديه. والكرم يكون مع النفس بأن لا تزلّ ولا تهوي، وبالابتعاد عن اللغو وقول السوء. وقد وصف الله عباد الرحمن بأنّهم: ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴾ **[الفرقان: ٧٢]**. والكرم يكون مع الأهل والأقارب بالمعاملة الحسنة، والإنفاق المستحبّ. يقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذي الرَّحم اثنتان: صدقة وصلة»[٢]. وإكرام الضيف، وجه من وجوه الكرم، يقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»[٣]. والكرم يكون مع الناس، في قضاء حوائجهم وفي كلّ ما يجرُّ نفعًا لهم.

* ومن مكارم الأخلاق:

التواضع، والقناعة، والرحمة، والعفّة، والمؤاخاة، والإيثار، والأدب، والنظافة، وغير ذلك كثير ممّا حفلت به المراجع العلميّة، وكلّها نعم من الله، لها ثمارها وفضائلها في المجتمع وتحضّره وتقدّمه ورقيّه.

---

(١) الترمذي، الجامع الصحيح، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، ح (٢٤٧٠)، ٦٤٤/٤ [قال الترمذي: حديث صحيح].

(٢) النسائي، السنن الكبرى، كتاب الزكاة، باب الصدقة على الأقارب، ح (٢٥٨٢)، ٦٧/٥.

(٣) البخاري، الصحيح، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ح (٩٠١)، ٣٢٩/٨.

نعمة التوبة

شرع الله التوبة، لأنّ الخطأ طبيعة في النفس البشريّة، حيث يقول تعالى، على لسان سيدنا يوسف عليه السلام: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ ﴾ [يوسف: ٥٣]، ويقول النبيّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم: «كلّ بني آدم خطّاء، وخير الخطّائين التوّابون»[1]، وكلمة خطّاء، أي كثير الخطأ، كما أنّ «كلّ بني آدم» لم تستثنِ أحدًا من البشر على الإطلاق. وإذا أخطأ الإنسان بسبب جهل أو تقصير أو سوء تقدير أو عدم إدراك، فإنّ الله يمهل ولا يهمل، يقول تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَ ﴾ [الكهف: ٥٨]، أيّ أنّ عقاب الله على الذنوب والمعاصي لا يكون مباشرة ومعجلًا، بل يعطي الله الإنسان فرصة لاستدراك الخطأ، ولكي يعقل ما وقع منه حتى يتوب إلى الله، ويستغفره عمّا صدر عنه من زلل وتقصير.

وقد وعدنا الله بالستر، حتى لا يفضح أمر المذنب بين الناس، فتأخذه العزّة بالنفس، فينأى عن التوبة ويبتعد، وربما يصرّ عليها مستكبرًا. ويروى أنّ أحد الرجال سرق في عهد الخليفة عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، فأخذوه إلى عمر للحكم عليه، فقال الرجل لعمر رضي الله عنه: أُقْسِمُ بالله، هذه أوّل مرّة. فقال له عمر: كَذَبْتَ إنّ الله لا يفضح عباده من أوّل مرّة.

ومن فضل الله علينا ونعمته، أنّ الله يقبل التوبة من العبد المذنب مباشرة، ومن دون وساطة وليٍّ أو زعيم، إمعانًا في ستر الذنوب وحتى لا يفضح أمر المسيئين.

وللتوبة شروط لا بدّ من توفرها حتى يقبلها الله، ويغفر لصاحبها، حيث يقول تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ﴾ [طه: ٨٢]، ففي هذه الآية إعلان صريح ووعد قاطع بالغفران من الله إذا كانت التوبة مقرونة بالعزم الصادق على الإقلاع عن المعصية، وعدم العودة إليها: ﴿ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ﴾، وفي ذلك صلاح

(١) ابن ماجه، السنن، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، ح (٤٢٥١)، ٢/١٤٢٠.

الفرد والمجتمع على السواء.

أما إذا كانت التوبة متعلّقة بحقوق العباد، فلا بدّ من إعادة الحقوق لأصحابها حتى تقبل التوبة، سواء كانت هذه الحقوق مادّيّة حسّيّة (مثل أكل المال بالباطل)، فيجب إرجاعها إلى أصحابها؛ أو كانت معنويّة (مثل الغيبة والنميمة)، فيجب طلب الغفران من أصحابها. وفي كلتا الحالتين، فإنّ في إعادة الحقوق لأصحابها إحقاقًا للحقّ، وإبطالًا للباطل. يقول علماء النفس بأنّ التوبة، بما فيها من إقرار بالخطأ، وعزم على عدم تكراره، تهذّب النفس وتجعلها أكثر صلابة في الحق وتمسّكًا به، وأكثر كرهًا للمعصية وبعدًا عنها.

ولقد أبقى الله عزّ وجلّ أبواب التوبة مشرّعة مفتوحة على الدوام حيث يقول النبيّ عليه الصلاة السلام: «إنّ الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتّى تطلع الشمس من مغربها»[(١)]، أيّ حتّى يوم القيامة ، فالتوبة ليست بحاجة إلى وقت خاص، أو ظروف معيّنة، أو مقدّمات خاصّة سوى توفر الشروط للقبول.

يضاف إلى ذلك، أنّ الله قد شجّعنا على التوبة وحضّ المسلمين عليها، حتّى تستقيم أمور الناس ويقلعوا عن الذنوب والمعاصي، ويتحقّق صلاحهم وفلاحهم في الأرض، وكما ورد في الحديث الشريف: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»[(٢)]، وعنه صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «لله أشدّ فرحًا بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض دويّة مهلكة معه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فنام فاستيقظ وقد ذهبت راحلته، فطلبها حتّى أدركه العطش ثمّ قال: «أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت»، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلته وعليها زاده

---

(١) مسلم الصحيح، كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة، ح (٢٧٥٩/٣١)، ٢١١٣/٤.

(٢) ابن ماجه، السنن، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، ح (٤٢٥٠)، ١٤١٩/٢.

البيهقي، السنن الكبرى، كتاب الشهادات، باب شهادة القاذف، ح (٢٠٥٦٢)، ٢٥٩/١٠.

وطعامه، فالله أشدّ فرحًا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده»[١].

ومن نعمة الله علينا في التوبة أن يسّرها لنا، وعلَّمنا إيّاها، بدءًا من سيدنا آدم عليه السلام، حين عصى ربّه، وأكل من الشجرة، فندم على ما فعل، ولكنّه لم يعرف كيف يتوب: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [البقرة: ٣٧]، أي إن الله تعالى علم آدم أن يقول: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٣].

يروى أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مرَّ ذات يوم بأبي ذرّ رضي الله عنه، فوجده يبكي، فقال له: «ما يبكيك يا أبا ذر؟»، فقال أبو ذر رضي الله عنه: يا رسول الله إني امرؤ خطّاء (كثير الأخطاء والذنوب)، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «اذهب واستغفر»، قال أبو ذر: أعود وأذنب. قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «عُدْ واستغفر». قال أبو ذرّ: أعود وأذنب. قال الرسول صلّى الله عليه وسلّم: «عد واستغفر». قال أبو ذر: إذًا يكثر خطئي. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «يا أبا ذرّ، اعلم أنّ رحمة الله عليك أعظم من إكثارك على نفسك بالذنب».

وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «إنّ الله لمّا قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه: إنّ رحمتي سبقت غضبي»[٢].

ويقول عليه الصلاة والسلام في حديث قدسي آخر: «يا ابن آدم، لو جئتني بقراب الأرض خطايا، لا تشرك بي شيئًا لجئتُك بقرابها مغفرة، يا ابن آدم، إنّك إن استغفرتَني لوجدتَني قد غفرت لك ما كان منك ولا أبالي»[٣].

ومن نعمة الله علينا في التوبة، أنّ الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، أي أنّ الذنوب مهما كبرتْ فإنّ الله غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحًا،

---

(١) مسلم، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها، ح (٢٧٤٤/٣)، ٢١٠٣/٤.

(٢) البخاري، الصحيح، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: "وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم"، ح (٢٢٢٣)، ٧٩٣/٩.

(٣) الدارمي، السنن، كتاب الرقاق، باب إذا تقرب العبد إلى الله، ح (٢٧٨٨)، ٤١٤/٢.

إذا صدق مع ربّه. ورد في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنّ نبيّ الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «كان في من كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا، فسأل عن أعلمِ أهل الأرض، فَدُلَّ على راهب فأتاه فقال أنّه قتل تسعة وتسعين نفسًا، فهل له من توبة؟ قال لا. فقتله فكمّل به مائة، ثمّ سأل عن أعلم أهل الأرض، فدلّ على رجل عالم فقال له إنّه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ قال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة! انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسًا يعبدون الله عزّ وجلّ، فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك، فإنّها أرض سوء. فانطلق حتّى إذا كان نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمتْ فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا مقبلًا بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنّه لم يعمل خيرًا قطّ. فأتاهم مَلَكٌ في صورة آدمي، فجعلوه حكمًا بينهم، فقال: «قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيّتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة»، وفي رواية: «فكان إلى القرية الصالحة أقرب منها بشبر، فجعل من أهلها». وفي رواية: فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدي، وإلى هذه أن تقرّبي وقال: قيسوا ما بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر، فغفر له»[(١)].

وفي حديث لسلمان الفارسي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «والذي نفسي بيده لو لم تُذْنِبوا لذهب الله بكم، لجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله تعالى، فيغفر لهم»[(٢)].

ولذلك كانت التوبة كلّها نعمة من الله وفضلًا، في شرعها وتيسيرها للناس، وفي شروطها وفي أوقاتها المفتوحة، وفي قبولها مباشرة، وفي غفران الذنوب التي سبقتها ولو بلغت عنان السماء.

---

(١) مسلم، الصحيح، كتاب التوبة باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، ح (٢٤٦٦/٤٨)، ٤/٢١١٩.

(٢) مسلم، الصحيح، كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار توبة، ح (٢٧٤٩/١١)، ٤/ ٢١٠٦.